

الحسبة الفكرية في عصر العولمة

أ.عبدالقادر سعدي
جامعة الجزائر

مقدمة:

في ظل احتفال العالم بمرور نحو عقدين ونصف على تاريخ تمكين الأفراد والشعوب من استعمال الشبكة العنكبوتية، واتخاذ عيدا عالميا¹، يتساءل المرء عن السبب الحقيقي لهذا الاحتفال، هل هو احتفاء بالتاريخ الذي شكّل نقطة تحول غير مسبقة في مجال الاتصال وتدفق المعلومات والأفكار، وتقريب الأفراد والشعوب من بعضها البعض، حيث صار العالم أشبه بقرية صغيرة، أم أن وراء الاحتفال به أسباب خفية.

إن التأمل في لغة المصالح التي أصبحت تحكم عالم اليوم، يرجح وجود أسباب ودوافع خفية لهذا الحدث العالمي، فما كان للغرب البرغماتي أن يُمكن غيره من هذه التقنية الفذة، لولا لم يجد فيها الوسيلة المثلى للترويج لمختلف الأفكار والإيديولوجيات التي تخدم مصالحه، ويكفي أن نتوقف عند حجم أرباح ومداحيل مؤسسات التقنية المعلوماتية التي استطاعت أن تتفوق على شركات النفط العالمية، أو عند عولمة أنصار الأندية الرياضية على حساب الفرق الرياضية الوطنية، لنذكر أنه احتفال بتاريخ توظيف الثورة المعلوماتية في الهيمنة على الشعوب المستضعفة، خاصة في ظل الدعوات الصريحة للعولمة، والتي لاتعدو كونها صورة معاصرة للاستعمار التقليدي، بما تنطوي عليه من دعاوى وأفكار باتت تشكل تهديدا واضحا للمقومات الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية لأبناء أمتنا.

وأمام هذه الحقيقة الواضحة، وفي ضوء استحالة الانعزال عن الشبكة العنكبوتية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الحياة المعاصرة، ندرك حجم المسؤولية نحو الأوطان والأجيال الناشئة، فلا مناص من إيجاد آلية للتعاطي مع هذه الظاهرة في مختلف أبعادها، وخاصة في بعدها الفكري الذي نعتقد أنه أخطرها.

فما طبيعة المخاطر الفكرية للعولمة؟ وماهي العوامل التي أسهمت في تنفّذها وسط مجتمعاتنا؟ وكيف تتم حماية الأجيال الناشئة من مخاطرها دون المساس بالحرية الفكرية؟

تمهيد:

لايعني وصف هذا العصر بعصر العولمة التسليم بحدوث العولمة، وإنما الإشارة إلى طغيان الحدث والحديث عنه في مختلف وسائل الثورة المعلوماتية ووسائل الاتصال، حتى أصبح عنوان العصر، بل صار مصطلح العولمة ومفهومها في نظر بعض الباحثين مرادفا لكثافة انتقال المعلومات وسرعتها، إذ أصبح الإنسان يشعُر معها أنه يعيش في عالم واحد وموحد، أو قرية كونية صغيرة يطغى عليها عنصر التأثير والتأثير المتبادل والمستمر².

إن أبرز مايستوقفنا في الحديث عن عصر العولمة هو مسألة التأثير والتأثر بالنسبة لمجتمعاتنا، والتي تعتبر من أبرز آثار ثورة المعلومات والاتصال، وخاصة في مجالها الثقافي فيما يعرف بالعولمة الثقافية، باعتبار الطريق الممهد لإحداث العولمة في بقية المجالات الأخرى.

أولا: عصر العولمة.

مفهوم العولمة:

بمجرد ظهور مصطلح العولمة انبرت أقلام عدد كبير من الباحثين لدراسة هذه الظاهرة، كل يتناولها حسب خلفياته الفكرية، ومن زاوية تخصّصه، فجاءت الآراء في ضبط مفهومها متنوعة، وفي تقييم آثارها متفاوتة، إلا أن الملفت في ذلك

هو أن دائرة الخلاف والاختلاق تضيق كلما جُرد مفهوم العولمة من بُعديّ المنافع والمفاسد، والدوافع الحقيقية لدعاها والمروجين لها، إذ تُعبّر عند معظم الباحثين والمفكرين عن سقوط الحدود بين الشعوب في مختلف المجالات، فهي في منظور مجمع اللغة العربية بالقاهرة "جعل الشيء عالمياً"³، ولا يتعد ذلك كثيراً عن مفهوم منظرها في الغرب، فهي تعبر عنده عن "عالم بلا حدود"⁴، لكن بمجرد استحضر معاني النفع والفساد المترتبة على هذه الظاهرة، واستدعاء الدوافع الحقيقية لدعاها، تتسع شقة الخلاف والاختلاف وتتعدد المفاهيم وتتفاوت المواقف منها.

والذي يعيننا في هذا، تفسير مفكرينا لطبيعة هذه الظاهرة ومواقفهم منها، باعتبارهم النخبة التي يقع عليها معظم المسؤولية في التنوير بالفكر الإيجابي الصحيح، والتحذير من منكر الفكر المدموم، ويمكن أن نميز في ذلك بين موقفين أساسيين:

أ. موقف التأييد والتبني:

يرى أصحاب هذا الموقف أن العولمة ماهي إلا مظهر من مظاهر حضارة العصر، وأثراً من آثار ثورة المعلومات والاتصالات في إيجاد نمط عالمي موحد⁵، سواء كان ذلك وفق القوالب الغربية، التي تمثل -في نظر هؤلاء- السبيل الوحيد لتحقيق النهضة والخلاص من أوضاع التخلف والركود الذي تعانيه أمتنا، أو كان بالتوافق بين مجموع القوالب الإنسانية بعد صهرها في بوتقة واحدة⁶، كمظهر من مظاهر التكامل والتعاون بين الأمم على اختلاف توجهاتها الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية .

وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن العولمة في نظرهم حتمية لا يمكن اتخاذ أي موقف منها إلا موقف المستسلم المتلقي الذي يتقبلها بكل مافيه من إيجابيات وسلبيات، لما تتمتع به من وسائل الثورة المعلوماتية، بل لا يتردد بعضهم في الدعوة الصريحة إلى الذوبان في ما تدعو إليه، ولم يتورع عن وصفها بـ "فتح العولمة"⁷ أو "النظام الرشيد" الذي لا يعدو كونه "شكل من أشكال تبسيط العلاقات، وتجاوز العقد التاريخي والنفسي، والنظر إلى العالم باعتباره وحدة متجانسة واحدة"⁸.
ب. موقف الرفض والمعارضة :

يرى أن العولمة ماهي إلا قبولاً للعالم وفق النموذج الغربي، وهو ما ينطوي على عدد غير محدود من المخاطر والمفاسد التي تهدد وجود وثوابت الشعوب المستضعفة وفي مقدمتها الشعوب العربية والمسلمة.

فالعولمة في نظر أصحاب هذا الموقف "نظام عالمي، أو يراد له أن يكون كذلك"، يشمل مجالات الإقتصاد والفكر والسياسة والثقافة"⁹، ويقوم على القسر والقهر في تعميم خصوصية حضارية بعينها على حساب الخصوصيات الحضارية للأمم المستضعفة المقهورة¹⁰، وذلك بهدف فرض الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية من موقع السيد للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين¹¹.

وانطلاقاً من هذا المفهوم يدعو أقطاب هذا التيار إلى ضرورة التصدي لمخاطر العولمة بذات الوسائل التي تعتمدها، ويعتبر أن الخضوع والتسليم لفكرها هو انتصار للحضارة الغربية المتغلبة ودعوة إلى التبعية الحضارية وفقدان المقومات الثقافية والحضارية لأمتنا¹².

وينكر أصحاب هذا الموقف استعمال مصطلح "العالمية" كمترادف لمصطلح "العولمة"، بل يرون أن العالمية هي البديل الأمثل للعولمة لما تجسده من التفاعل الحر والاختياري بين الحضارات المتعددة والتمايزة والذي لا ينفي تمايزها في الخصوصيات والمحليات¹³.

إن القول بأن العولمة تعبر عن إيجاد نمط عالمي موحد من مجموع القوالب المختلفة، هو قول عار عن الصحة لاستحالة

حدوث ذلك بفعل التباين الشديد بين مقومات الأمم والتمايز الواضح بين مختلف الأفكار والثقافات، ثم لأن الغلبة في ذلك تكون لمن يمتلك الوسائل الأقوى، وهو أمر يميل إلى كفة الغرب الغالب لا الشرق المغلوب على أمره، ومن ثمة لا تكون العولمة في حقيقتها إلا مصطلحا غربيا يعبر عن الرغبة في اجتياح حضارة الغرب للحضارات الأخرى¹⁴، وهو المعنى الحقيقي للعولمة¹⁵.

أما التصريح بمناصرة العولمة على النموذج الغربي فهو دعوة صريحة إلى التبعية والدوبان، بل استدعاء للاستعمار بصورته المعاصرة.

لكن في المقابل كيف يمكن لأنصار الموقف الرافض للعولمة أن يواجه الإكتساح الواسع لها والتدفق المذهل لفكرها، في ظل الثورة المعلوماتية والإنتشار الواسع لمختلف وسائل الإتصال؟

إنّ صحة المواقف وأصالتها لا تعني الغلبة والتمكين مالم تستند إلى فعالية حقيقية¹⁶، تمكّنها من تحقيق أهدافها، وهو ما يتوقف في مواجهة فكر العولمة على إدراك طبيعة العوامل التي يتركز عليها هذا الفكر من ناحية، واعتماد ذات وسائل العصر التي يعتمد عليها في الدعاية، ونعني بها وسائل الثورة المعلوماتية والاتصال. عوامل العولمة:

انطلاقا من حقيقة اعتبارنا أن العولمة تمثل الوجه المعاصر للاستعمار التقليدي، فإنه يمكن استدعاء فكر المفكر الجزائري مالك بن نبي في تحليل عواملها، فقد كان المستعمر يعتمد في التمكين لمشروعه الاستعماري على إحاطة المستعمر بشبكة محكمة من الأفكار المخطّمة لقيّمه، والموانع المعرّقة لمصالحه، فيما يعرف عند بن نبي "بالمعامل الاستعماري" كعامل خارجي، يرتبط ارتباطا وثيقا بعامل "القابلية للإستعمار" كعامل داخلي ذاتي¹⁷. واستنادا لهذا التحليل، فإنه يمكن حصر عوامل العولمة في واقعنا المعاصر في عاملين أساسيين -مع الفارق في حجم وطبيعة تأثيرات- هما:

أ. عامل العولمة:

لا تختلف شبكة الأفكار التي تسعى العولمة إلى بثّها كثيرا عن أفكار الاستعمار التقليدي، إذ تسعى هي الأخرى إلى تحطيم قيم الشعوب ومنعها من تحقيق نهضتها، وهي في عمومها أفكار سلبية يصفها بن نبي بالأفكار المميّة¹⁸، والتي لا تمثل إلا نوعا من النفايات، أو الجزء الميت من تلك الحضارة¹⁹، فالعولمة نظام يهدف إلى القفز على الدولة والأمة والوطن، والعمل على التفتيت والتشتيت في شتى المجالات²⁰، وفي مقدمتها المجال الثقافي أو ما يعرف بـ "العولمة الثقافية"، التي تهدف إلى طمس الهوية الثقافية للشعوب، عن طريق احتلال العقل والتفكير²¹ المفضي إلى نزع هويتنا منا، أو انتزاعنا منها²²، من قبيل طمس اللغة، وهدم القيم الاجتماعية بنشر وإعلاء القيم المنافية لها كقيم الفردية، المادية، الأنانية، النفعية، الإباحية، وهدم الأسر بنشر فكر الإباحية خارج إطار الزوجية...، وهو ما عبر عنه المؤرخ الأمريكي رونالد ستيل في توصيفه لنوع الثقافة التي ستسود العالم في زمن العولمة، بأنها "ثقافة أفلام الحركة، والعنف، والجريمة، والجنس"²³.

ورغم بطلان الفكر الذي يروّج له دعاة العولمة، إلا أنهم أحاطوا بقدر كبير من الفعالية مكنت من انتشاره وإيجاد دعاة ومناصرين له في أوطاننا، وليس ذلك بمستغرب، فالتاريخ كما يرى بن نبي "يزخر بالكثير من الأفكار التي ولدت باطلا، ليس فيها أصالة، لكنها مع ذلك كان لها فعالية مدوية في أكثر الميادين تنوعا، وغالبا ماتكون هذه الأفكار محجبة مضطرة لحمل قناعاة الأصالة لتدخل التاريخ.... ذلك أن الفكرة إذا كانت فعالة في بعض الظروف فلاها استطاعت أن تتمتع بخاصية القداسة عند أهل العصر"²⁴.

ولعل أبرز ما يجسد روح الفاعلية، هو القدرة الفائقة على تسخير وسائل الثورة المعلوماتية، وفي مقدمتها اعتماد الصورة بدل الكتابة، لأن ثقافة العولمة - كما يصفها بعض الباحثين - هي ثقافة ما بعد المكتوب، ثقافة الصورة²⁵.
ب. عامل القابلية للعولمة:

إن إصاق كل شيء بعامل العولمة هو نوع من التنصل من المسؤولية، بل هو رفض لروح النقد الذاتي²⁶، الذي كان أحد أهم أسباب الأزمة الثقافية عندنا²⁷، فقد أثبتت الحوادث التاريخية أن النقد لم يدخل في عاداتنا، ولم يستقر في جونا العقلي، بل إن كلمة "النقد" ذاتها لم ترح أن تكون كلمة أجنبية عن قاموسنا، أو تكاد تكون مرادفة لكلمة "تشويه"²⁸.
فالتأمل في ظاهرة العولمة يدرك أن نجاح التمكين لعامل العولمة في الكثير من المجالات، ما كان له أن يتحقق لولا وجود عامل ذاتي يتعلق بطبيعة المتلقي لفكره من أبناء أمتنا فيما يعرف بعامل "القابلية"، وهو الأخطر في نظر مالك بن نبي، لأنه استجابة شرطية للفعل الاستعماري.

والقابلية في نظر بن نبي عبارة عن معامل داخلي ينبعث من باطن الفرد يجعله يقبل على نفسه تلك الصبغة، والسير في تلك الحدود الضيقة التي رُسمت له، وحُددت له فيها حركاته وأفكاره وحياته²⁹.

وهذا التحليل لمصطلح "القابلية" كتفسير لظاهرة سلبية - ظاهرة الاستعمار - يضعنا أمام تساولين هامين:

أولاً: هل يقتصر مفهوم "القابلية" على القبول والرضا الذي يستشعره الفرد والمجتمع بالصبغة والحدود التي رسمها له الاستعمار مثلما يشير بن نبي³⁰، أم أنه مصطلح يتسع ليشمل الاتصاف بمواصفات تغري المستعمر بالإقدام على جريمته الاستعمارية، وتجعل المستعمر قابلاً للاستعمار؟

إن الإجابة على هذه التساؤل، تقتضي الوقوف عند العاملين معاً، عامل "القابلية"، وعامل "الإستعمار"، ومدى ارتباطهما ببعضهما البعض، فالقبول بالاستعمار لم يكن ليتحقق إلا بعد وقوع الاستعمار، لكن هناك حتماً مواصفات اتصف بها المستعمر كانت سبباً في إغراء المستعمر على الإقدام على جريمته الاستعمارية، فبقدر ما يلام المستعمر في الإقدام على جريمته الاستعمارية، يلام المستعمر الذي وفر الظروف المناسبة لوقوع الجريمة، بل أغرى المستعمر بالإقدام عليها، ومن ثمة فإنه يمكن القول أن القابلية للاستعمار تعني الاتصاف بمواصفات سلبية تغري المستعمر بالإقدام على جريمته الاستعمارية من ناحية، وتجعل المستعمر يقبل ويسلم بالواقع الاستعماري كقدر محتوم لا مفرّ منه.

وهذا المفهوم للقابلية ينطبق على العولمة كوجه معاصر للاستعمار، فلا يمكن لمعامل العولمة أن يحقق مشروعه، ويجسد أهدافه إلا إذا وجد له قدراً كبيراً من الاستعدادات الفكرية والنفسية، والاجتماعية والسياسية السلبية لدى الشعوب المستضعفة، يغري دعاة العولمة ويشجعهم على الإقدام على فعل العولمة من ناحية، ويدفع هذه الشعوب إلى التسليم بواقع العولمة دون إبداء أي نوع من الرفض أو المقاومة من ناحية أخرى.

وبذلك تكون العلة في حدوث العولمة وتبني مذهبها من طرف أبناء أمتنا - على ضوء فكر بن نبي - مزدوجة، فكلما شعرنا بداء عامل العولمة يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه معاملاً باطنياً يستجيب للمعامل الخارجي ويحطّ من كرامتنا بأيدينا، متمثلاً في عامل القابلية³¹. فما كان للغرب أن يمكننا من تقنية الشبكة المعلوماتية لو لم يجد فينا قدراً كبيراً من القابلية لمشروعاته الاستعمارية.

التساؤل الثاني: هل ينحصر مصطلح "القابلية" في تحليل الظواهر السلبية، أم يتعداها إلى الظواهر الإيجابية؟

لقد ارتبط مصطلح "القابلية" بتحليل ظاهرة الاستعمار كظاهرة سلبية، لكن نعتقد أنه ينطبق تماماً وبنفس المعاني على الظواهر الإيجابية، فقولنا قابلية الشخص للتعليم هي تعبير عن قابلية إيجابية، تعبر عن امتلاكه لمختلف الاستعدادات التي

تمكنه من اكتساب المعرفة، ويكفي للتدليل على ذلك أن نتأمل في الأمم التي حققت النهضة في مختلف جوانبها مثل اليابان، فنجد أن أبرز العوامل التي مكنتها من ذلك، تحقق شعبها بحظ كبير من الاستعدادات الإيجابية لتحقيق النهضة، يمكن أن نطلق عليها اسم "القابلية للنهضة"، وذلك على الرغم من افتقارها للكثير من المحفزات المادية، وفي مقابل ذلك بقيت الدول العربية التي نالت استقلالها في نفس الفترة، تُرواح مكانها من التخلف والتبعية، لا شيء إلا لافتقارها إلى "عامل القابلية" ببعده الإيجابي.

ونعني بالقابلية الإيجابية جملة الاستعدادات الفكرية والنفسية، والاجتماعية والسياسية التي تمكن من إحداث النهضة والإقلاع الحضاري، وترك التسليم بالواقع المعاش.

وعلى ضوء هذا التخريج أو الاستنتاج، فإنه يمكن القول أن الصراع بين دعاة العولمة ودعاة الأصالة الراضين لها، هو صراع حول عامل القابلية، إذا يسعى دعاة العولمة إلى استغلال القابلية السلبية لدى الشعوب، بل تعميقها قصد الإبقاء على حالة التخلف فيها وتزوير المشروعات الاستثنائية بصورتها المعاصرة، في حين يسعى رواد الإصلاح في مجتمعاتنا إلى إصلاح عامل القابلية من خلال عملية التغيير له من الصورة السلبية التي تعني القابلية للعولمة إلى الصورة الإيجابية. بمعنى القابلية للنهضة، وذلك امتثالا لقول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ»³².

إن نجاح جهود الإصلاح والتغيير، وتحقيق النهضة في عصر العولمة، يتوقف على حجم الفاعلية في استغلال وسائل الثورة المعلوماتية والاتصال، وتوظيفها في التصدي لانتشار فكر العولمة بين أبناء أمتنا من جانب، ومحاربة فكر القابلية للعولمة من جانب آخر، فيما يمكن أن نسميه بـ "الحسبة الفكرية"، فكيف يتم ذلك؟

ثانيا: الحسبة الفكرية في عصرنا.

تُعبّر الحسبة عن صفة الإيجابية والفعالية التي تتوقف عليها خيرية هذه الأمة، تحقّقا بقول الله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»³³، قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: "من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها"³⁴.

فالحسبة هي الصورة العملية لصفة الإيجابية والفعالية فيما يعرف بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك من

خلال نشر مختلف مظاهر الخير والصالح، ومدافعة مختلف مظاهر الفساد والانحراف الديني والأخلاقي والسياسي والاجتماعي، قال الله سبحانه وتعالى: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»³⁵.

مفهوم الحسبة:

لأنقصد بالحسبة³⁶ ذلك المفهوم الضيق أو الخاص الذي قد يتبادر إلى الكثير من الأذهان، والذي يقتصر على ما يعرف بالحسبة الإدارية الرسمية، التي تنحصر صلاحيات المكلف بها على مجال محدود يُعرف بمنكرات الأسواق، وجعلها تعرف في الكثير من البلاد بـ "خطة السوق".

إن الحسبة بمفهومها العام نظام شامل لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع مجالات الحياة الفكرية والثقافية و السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولعل ذلك ما جعل الإمام أبا حامد الغزالي يصفها بأنها "القطب الأعظم في الدين"³⁷، معللا ذلك بقوله: "وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة،

واضحلت الديانة، وعمّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد³⁸، ولذلك ربط الإمام الشاطبي أهميتها بالدور الذي تجسده في حماية مقاصد الشريعة³⁹.

وقد عرف الجمهور الحسبة بأنها "أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله"⁴⁰، وهو تعريف دقيق لولا أنهم قصره على المفهوم الخاص للحسبة كولاية دينية، وأدق منه وأقرب إلى المفهوم العام تعريف الغزلي، فهي عنده: "عبارة شرعية شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"⁴¹، تتسع لتشمل جميع مجالات الحياة، ومختلف مكونات المجتمع. مفهوم الفكر:

الفكر عبارة عن "إحضار معرفتين في القلب ليستخرج منها معرفة ثالثة"⁴²، أو هو "عملية ذهنية تنطوي على تردد القوى العاقلة المفكرة في الانسان بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى إصدار الأحكام، أو النسب بين الأشياء"⁴³.

ولا يتسع المقال للتوقف عند مكانة الفكر والمفكرين في الإسلام، إلا أن أبرز مسألة في ذلك حرص الإسلام على ضرورة الربط بين الفكر وصفة الايجابية والفعالية، إذ لم ترد كلمة "فكر" في القرآن الكريم إلا بصيغة الفعل لتدل على ارتباط الفكر بالعمل والحركة فلا ينبغي أن يكون فيما لا طائل من ورائه⁴⁴، بل إن الفكر من أجل الفكر، أو الفكر الكسول المتعطّل الذي لا يهدف إلى تحقيق نفع دنيوي أو أخروي غير مرغوب فيه شرعا⁴⁵، لأنه فكر لامستول، عمل على تخدير الأمة وتعطيل طاقاتها، وجمّد إبداعاتها، وكبل انطلاقاتها حتى وصل إلى المستوى الذي نعاصر متاعبه الصعبة وأزماته الخطيرة ومشاكله الشاملة⁴⁶،

ومن صوره الفكر المكتسب من الكتب مما ليس له ارتباط بالواقع الفكري لأمتنا، فيما يعرف عند بني بمرض طغيان الأفكار⁴⁷، وكذا العلم الذي لم يطلبه أصحابه ليصروه ضميرا فعلا، بل ليجعلوه آلة للعيش، وسلما يصعدون به إلى تحقيق المآرب الدنيوية⁴⁸.

فهذا العلم عملة زائفة غير قابلة للصرف، بل هو نوع من الجهل حجرته الحروف الأبجدية، وجاهل هذا النوع لا يقوم الأشياء بمعانيها، ولا يفهم الكلمات بمراميها، وإنما بحسب حروفها⁴⁹، وهو ما يؤدي إلى حدوث انفصام بين الفكر والمجتمع.

الحسبة الفكرية:

إذا استصحبنا المعاني السابقة للحسبة، وعمدنا إلى إسقاط معنى الحسبة على مجالات الفكر، فإنه يمكن تقسيم الفكر إلى قسمين، معروف الفكر من الفكر الصحيح الحمود، ومنكر الفكر من الفكر المنحرف المذموم.

وإذا كان بيان ذلك يرجع إلى أهل الاختصاص من العلماء والمفكرين، لقول الله تعالى: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»⁵⁰، وقوله تعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة طائفة منهم ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»⁵¹.

فإنه يمكن القول بأن الحسبة الفكرية: هي فاعلية أهل العلم والفكر في التنوير بالفكر الصحيح الحمود والدعوة إليه إذا أمحى واندرس بين الناس ذكره، والتحذير من منكر الفكر والردّ عليه ودحضه إذا ظهر نشره، قال الله تعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»⁵².

إن قيام أهل العلم والفكر بهذه الفريضة الشرعية، يجسّد ارتباطهم بواقع مجتمعاتهم، وهموم أبناء أمتهم، بعيدا عن الترف الفكري مما لا يبنّي عليه عمل، أو ما يسميه مالك بن نبي بتكديس الأفكار⁵³، الذي يتنافى مع روح البناء، بل يعتبر مظهرها

من مظاهر الأزمة الفكرية عندنا.

وهذا المفهوم يضعنا أمام تساؤلات ثلاثة:

التساؤل الأول: ماهي المرجعية الفكرية في الحسبة على الفكر، كونه محمود أو مذموم؟

إذا كان تعدد المصادر والمراجع الفكرية يعتبر مظهرا من مظاهر التنوع الفكري والثقافي في جانبه الإيجابي، فإنه يعتبر من جانب آخر مظهر من مظاهر القابلية للعولمة، باعتباره سبب من أسباب التناحر والصراع المذهبي، وما يتبعه من انعكاسات على مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية، ولعل ذلك ما دفع بعض المفكرين إلى الدعوة لإعادة تحديد الإطار المرجعي لهذه الأمة من جديد، "بحيث لا يصبح التراث كله وحده مصدر الأصالة كلها، ولا المعاصرة والحداثة كلها وكما هي إطار مرجعيا بحجج مختلفة"⁵⁴.

إلا أن هذا الإشكال يزول في الحسبة الفكرية، بالرجوع إلى الشروط التي وضعها العلماء لجواز القيام بواجب لإحتساب، ونعني به شرط كون المنكر معلوما بغير اجتهاد، فلا يصح الاحتساب إلا في المسائل المتفق عليه، أما المختلف فيه من المسائل الاجتهادية فلا حسبة فيه⁵⁵.

التساؤل الثاني: ما أثر الحسبة الفكرية على الحرية الفكرية وحرية الرأي؟

يذهب الكثير من المفكرين من أنصار التيار التغريبي إلى الإعتراض على الحسبة في مجال الفكر، لتعارضها مع الحرية الفكرية، وحرية الرأي والتعبير، وهو محض إدعاء نعتقد أنه عار عن الصحة من عدة وجوه، فالحسبة الفكرية تهدف إلى تحقيق حصانة فكرية لأبناء أمتنا، من خلال التعريف والتنوير الفكري بالكلمة المكتوبة والمسموعة، أو بعبارة أخرى توعية المجتمع للتخلص من فكر القابلية، وإكسابه حصانة فكرية تمكنه من التعاطي مع الفكر الوافد في ظل العولمة، وهو هدف بعيد كل البعد عن معاني الحجر الفكري الذي يهدف إلى منع الرأي المخالف، فقد أقر الإسلام سنة الخلاف والاختلاف بين البشر، بل أكد استحالة انتزاعها، قال الله تعالى: "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"⁵⁶.

ويمكن الإستئناس في ذلك بالكثير من الحوادث التاريخية التي أثبتت فشل المنهج الاستقصائي في التعامل مع الفكر المخالف، مثلما كان مع كتب ابن حزم الظاهري في عصر الطوائف، وكتاب "الإحياء" للغزالي في عصر المرابطين، وكتب فروع الفقه المالكي في عصر الموحدين، بل نتائج هذا المنهج تأتي عكسية في الغالب⁵⁷.

ثم إن حقيقة الاحتساب الفكري هي التعبير عن الرأي من ناحية، وإبداء للرأي تجاه الفكر المخالف، ونشره بين الناس كأبرز أسلوب في الحفاظ على البناء الاجتماعي من ناحية أخرى⁵⁸، بل هو في منظور الإسلام مظهر من مظاهر قوة الإيمان، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»⁵⁹، فالتغيير في مجالات الفكر لا يعني إلا التعبير عن الرأي تجاه كل المسائل التي يراها المسلم في مجتمعه.

وهنا نتساءل: لماذا يقبل المعارضون على الحسبة الفكرية، الرقابة المادية على السلع المغشوشة والفاصلة في حين يرفضونها على الفكر المغشوش والمنحرف، هل سلامة الأجساد عندهم أسمى وأهم من سلامة العقول؟
مجالات الحسبة الفكرية "المحتسب فيه":

بالنظر إلى العوامل التي تعتمد عليها العولمة في التمكين للأفكار المخدولة⁶⁰، فإن الفعالية تقتضي تركيز الحسبة الفكرية باتجاهين: اتجاه التخلص من فكر القابلية الموروثة، واتجاه مواجهة فكر عصر العولمة الوافد.

1. الاحتساب على فكر القابلية الموروثة:

ونعني به الأفكار الموروثة السلبية الناتجة من إرثنا الاجتماعي ، فيما يعرف عند بن نبي بالأفكار الميتة⁶¹، مما ليس لها جذور في بوتقة الثقافة الأصيلة للعالم الإسلامي⁶²، والتي تبدو في نظر بن نبي أشد فتكا لأن جرثومتها الوراثية تلغم البنية الإسلامية من الداخل وتخدع حوافرها الدفاعية⁶³، فهي أشبه بالكمامات التي تمنع الفرس من إحالة الرؤية، إذ أنها لاتسمح لنا باستبانة أي شيء عدا النافه المجرد ، وحتى الميت⁶⁴.

وتتسع دائرة هذا النوع من الاحتساب باتساع دائرة فكر القابلية، الذي لا يتردد دعاة العولمة في الترويج له كقرين يمكن لفكر العولمة، ويكفي أن نضرب لذلك مثالا بفكر التطرف الذي اتسعت دائرته لتشمل مختلف مجالات الفكر، كالتطرف في الإيمان بالقضاء والقدر بين حدي اعتماد الاسباب وتركها فيما يعرف بالتواكل، والتطرف بين الحرفية والتأويل، وبين الابداع والإبتداع، وبين تكفير الحكام والتزلف لهم، وبين الإباحية والرهبانية....

2. الاحتساب على فكر عصر العولمة الوافد:

يذهب بعض الباحثين إلى القول باستحالة الوقوف في وجه المخاطر الفكرية في عصر العولمة لأنها "في طريقها إلى أن تصبح ثقافة عالمية أو كونية شاملة بكل ما في الكلمة من معنى، فلا شيء قادر على الوقوف في طريقها، ولن تستطيع الثقافات التقليدية أن تصنع شيئا أما ثقافة العولمة التي لاتصدها الحدود، أحبنا ذلك أو كرهنا، وافقنا أو رفضنا..."⁶⁵.

ونحن لاننكر أن في الغرب مصادر متعددة لتحقيق نهضتنا، إذا نحن أحسننا التعامل مع إنسانها، وتياراتها الفكرية، وإمكاناتها العلمية⁶⁶، إلا أنها تشتمل على قدر كبير من الفكر السلبي الذي يتنافى ومقوماتنا الحضارية، مما يعرف عند بن نبي بالأفكار الميتة⁶⁷، وهو ما يحتم علينا ضرورة العمل على إيجاد حصانة فكرية ذاتية لأبناء أمتنا، تمكنهم من الاستفادة من إيجابيات عصر العولمة، وتلافي سلبياته ومخاطره، لأن علاقتنا بالأفكار الميتة لعصر العولمة، لاتتعلق بطبيعة تلك الأفكار، بقدر ما تتعلق بطبيعة علاقتنا بها⁶⁸.

والاحتساب على هذا النوع من الفكر أخطر وأصعب لما تتمتع به وسائل الثورة المعلوماتية من قوة التأثير خاصة بين الأجيال الناشئة، ولاتساع دائرة انتشارها بين مختلف شرائح المجتمع، وأخطر ما يعتمد الغزو الفكري، مسألة تغيير المفاهيم والمصطلحات، كالترويج لفكر الإباحية ومحاربة الزواج، مثلما ورد في وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة سنة 1994م، إذ دعا إلى "...محاربة التمييز ضد الحوامل الشابات، والحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة، ولاسيما بإتاحة بدائل تغني عن الزواج المبكر... مع إشراك الأبوين والأسر والمجتمعات المحلية، والمؤسسات الدينية والمدارس ووسائل الإعلام، وجماعات الأقران في القيام بهذه الحماية لهذه الحقوق"⁶⁹.

إن نجاح الاحتساب الفكري، يتوقف على سلوك منهج الوسطية والاعتدال، سواء في إحياء فكرنا الأصيل وتجديده، وتخليص المجتمع من فكر القابلية الموروثة، أو في التعاطي مع فكر عصر العولمة الوافد دون انغلاق، ومن غير تبعية وذوبان، قال الله تعالى: « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»⁷⁰، ولن يتم ذلك إلا بتحقيق أهل العلم والفكر بقدر كبير من الفعالية.

وهنا نتساءل عن طبيعة العوامل التي تمكن من فعالية الحسبة الفكرية في عصر العولمة ؟

ونعتقد أن الإجابة عن هذا التساؤل تحتاج إلى تظافر جهود مختلف المفكرين والباحثين، إلا أنه يمكن الإشارة إلى ثلاثة عوامل نراها ضرورية، التنظيم والتكامل والعصرنة، فلا يمكن لجهود الحسبة الفكرية أن تؤتي ثمارها وتحقق أهدافها إلا بجهود منظمة⁷¹، تقوم على تتبع ورصد مختلف مواضيع الفكر المحتسب فيه سواء من فكر القابلية أو فكر عصر العولمة،

والإحاطة به من جميع جوانبه ومختلف أبعاده، بعيدا عن التزعة الذرية في التفكير⁷²، ثم التكفل بالاحتساب عليه بعد إخضاعه للنقد والتمحيص بما يتوافق مع صريح الشرع، وصحيح العقل، وهو الآخر يتوقف على مدى النجاح في تفعيله عبر وسائل الثورة المعلوماتية قصد الوصول أوسع دائرة من مختلف شرائح المجتمع.

خاتمة.

إنّ الحسبة الفكرية عملية فكرية تعبر عن إيجابية أهل العلم والفكر وفعاليتهم في إحياء الفكر الأصيل وتفعيله من جانب، ومحاربة الفكر الفاسد والتحذير منه من جانب آخر، سواء كان فكرا موروثا مما لاسند له في الشرع، أو كان فكرا وافدا مما يتنافى مع المقومات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية لأمتنا، ويهدد أبنائها بالمسخ أو المسح.

إلا أن روح الثورة المعلوماتية التي تقوم على مبدأ الإختراق والوصول إلى المتلقي لا على انتظار اتصاله، وعلى الصورة والكلمة المسموعة والمكتوبة معا، يحتم علينا إعادة النظر في الوسائل التقليدية للاحتساب، ونعتقد أن نجاح ذلك يتوقف على حجم التعاون والتكامل بين جهود أهل العلم والفكر، وإبداع أهل التقنية المعلوماتية في الوصول إلى المتلقي بأرقى وأدق الطرق والوسائل التي توفرها وسائل الثورة المعلوماتية قصد بناء وتقوية المناعة الفكرية لمختلف مكونات المجتمع، والتي يتوقف عليها الإنطلاق والنهوض الحضاري لأمتنا.

الهوامش.

¹ - يوافق اليوم العالمي للانترنت 23 أوت، وكان ذلك سنة 1991م.

² - برهان عليون، سمير أمين علوان: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، ط2، دار الفكر، دمشق 2002م، ص20.

³ - عبد العزيز التويجري: العولمة والحياة الثقافية في العالم الاسلامي، موقع المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة: www.isesco.org

⁴ - كينشي أوماي، يعرف في الغرب ب "نبي العولمة": عالم بلا حدود، نقلا عن الهوية الاسلامية في زمن العولمة الثقافية"، ص104.

⁵ - حمدي عبد الرحمن: في انعكاسات العولمة السياسية والثقافية على الوطن العربي، مركز دراسات الشرق الأوسط، ط1، عمان 2001م، ص35.

⁶ - زكريا طاحون: بينات ترهقها العولمة، ط1، جمعية المكتب العربي، القاهرة 2003م، ص71.

⁷ - ينسب للمفكر اللبناني علي حرب، يقول: "فنحن إزاء فتح كوني". انظر: بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة، ص59.

⁸ - عبد الحي يحيى زلوم: لدرء العولمة هل بوسع العالم أن يقول لا للرأسمالية العالمية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1999م، ص45.

نقلا عن الهوية الاسلامية في زمن العولمة الثقافية"، ص104.

⁹ - الجابري: العولمة والهوية الثقافية، المستقبل العربي، العدد 228، ص16، السنة 1999.

¹⁰ - عمارة محمد: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نخضة مصر للطباعة والنشر، ط1، مصر 1999م، ص13.

¹¹ - القرضاوي: المسلمون والعولمة، دار التوزيع والنشر الاسلامية، ط1 مصر 2000م، ص13.

¹² - العلواني: الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، دار الهادي للطباعة والنشر، ط1، لبنان 2003م، ص59-60.

¹³ - عمارة، المرجع السابق، ص13.

- 14 - عمارة، المرجع السابق، ص14.
- 15 - عماد الدين خليل: تحديات النظام العالمي الجديد.. جوهر العولمة وبديلها: /6-2003، 8، موقع www.Islamonline.net
- 16 - تعني الفعالية في منظور بن نبي تفعيله لتحقيق أهداف معينة، قد تكون أصيلة أو باطلة، وتعرف بمقدار تأثيره من العواصف وماتشيد
- أو تقدم على أرض الواقع كتاب مشكلة الأفكار، ص102-103.
- 17 - مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1986م، ص 147.
- 18 - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، وأحمد شعبو، ط1، دار الفكر دمشق 1988م، ص146.
- 19 - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص150
- 20 - محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1997م، ص149.
- 21 - وليد أحمد مساعدة، عماد عبدالله الشريفي: العولمة الثقافية، رؤية إسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد 8، العدد 1، جامعة البرموك،
- الأردن 2010م، ص258.
- 22 - القرضاوي: المسلمون والعولمة، مرجع سابق، ص46.
- 23 - نقلا عن حاتم بن عثمان: العولمة والثقافة، ط1، دار الفارس، عمان 1999م، ص20.
- 24 - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص104-105.
- 25 - الجابري: العولمة والهوية الثقافية، المستقبل العربي، العدد 228، السنة 1999، ص16.
- 26 - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، دار الفكر، دمشق 1986، ص70.
- 27 - أحمد زكي: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية نقدية، ط1، دار الصفوة، بيروت 1992، ص138.
- 28 - مالك بن نبي: في مهب المعركة، ط3، دار الفكر، دمشق 1981م، ص106.
- 29 - بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص153.
- 30 - بن نبي: نفس المرجع، ص153.
- 31 - بن نبي: نفس المرجع، ص153.
- 32 - سورة الرعد، الآية 11.
- 33 - سورة آل عمران الآية 110
- 34 - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 4/43، دار الفكر، بيروت 1405هـ .
- 35 - سورة البقرة، الآية 251.
- 36 - الحسية: بكسر الحاء تطلق على عدة معان منها: العد والحساب، طلب الأجر والثواب من الله والاكتفاء به، حسن التدبير في الأمور والنظر في مآلاتها، الإنكار، الاختبار والسير . انظر: مادة "حسب": ابن منظور: لسان العرب 3/164 ؛ الجوهري: الصحاح 1/110 باب الباء، فصل الحاء؛ الزبيدي: تاج العروس 1/275.
- 37 - الغزالي: الإحياء، مصدر سابق: 2/306.
- 38 - الغزالي: نفسه، 2/306.
- 39 - الشاطبي: الموافقات، تحقيق : إبراهيم رمضان 2/324، ط3، دار المعرفة، بيروت 1417هـ 1997م.

- 40 - أنظر: الماوردي ت450ه: الأحكام السلطانية، ص 240؛ أبو يعلى الفراء ت458ه: الأحكام السلطانية، ص 284.
- 41 - الغزالي: نفسه، 312/2.
- 42 - الغزالي: نفسه، 425/4.
- 43 - العلواني: الأزمة الفكرية، مرجع سابق، ص 69.
- 44 - العلواني: نفسه، ص 67.
- 45 - العلواني: نفسه، ص 69.
- 46 - زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط1، دار الصفوة، بيروت 1992، ص 125.
- 47 - بن نبي: مشكلة الأفكار، مصدر سابق، ص 84.
- 48 - بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 91.
- 49 - بن نبي: نفسه، ص 91.
- 50 - سورة الأنبياء، الآية 7.
- 51 - سورة التوبة، الآية 122.
- 52 - سورة آل عمران، الآية 104.
- 53 - مالك بن نبي: تأملات، ط1، دار الفكر، دمشق 1989م، ص 167.
- 54 - العلواني: الأزمة الفكرية، مرجع سابق، ص 48.
- 55 - أنظر: الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 331؛ الغزالي: الإحياء 325/2.
- 56 - سورة هود، الآية 119.
- 57 - أنظر رسالة الماجستير لصاحب المقال: أثر كتاب الإحياء للإمام الغزالي في بلاد الغرب الإسلامي، جامعة الجزائر 2013م.
- 58 - بوهنتالة إبراهيم: ضوابط حرية الرأي والتعبير في الإسلام، مجلة التراث، العدد 9، جامعة زيان عاشور الجلفة، السنة 2013م، ص 29.
- 59 - الإمام مسلم: الصحيح 69/2، باب "كون النهي عن المنكر من الإيمان".
- 60 - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص 153.
- 61 - مالك بن نبي: نفسه، ص 146.
- 62 - مالك بن نبي: نفسه، ص 149.
- 63 - مالك بن نبي: نفسه، ص 148.
- 64 - مالك بن نبي: نفسه، ص 152.
- 65 - تركي الحمد: هوية بلا هوية، نحن والعولمة، عن محمد عمارة: العولمة والهوية الثقافية، ص 38.
- 66 - محمد عمارة: العولمة والهوية الثقافية، مرجع سابق، ص 44.
- 67 - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص 146.
- 68 - مالك بن نبي: نفسه، ص 151.
- 69 - نقلا عن محمد عمارة: العولمة والهوية الثقافية، مرجع سابق، ص 27.
- 70 - سورة البقرة، الآية 143.
- 71 - بن نبي: نفسه، ص 148.
- 72 - بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 17.